

صنّوان وغير صنّوان يُسقى بماء واحد



لقد خلق الله الأرض وقدسّر فيها أقواتها قبل أن يخلق الإنسان بآلاف الملايين من السنين، فجعل فيها من كلّ أصناف الحيوانات والنباتات والثمار وكنوز الأرض ومعادنها قوتاً ورزقاً لبني آدم، ولكن الملحدين والمادّيين يقولون بأنّ الإنسان القديم هو الذي حرث الأرض ونثر فيها الحبوب المختلفة، ثمّ رعاها وسقاها، فأعطت قمحاً وعدساً ورزاً وغير ذلك، وهو الذي زرع شتلات الأشجار المختلفة وتولاها بالعناية حتى نمت وأثمرت وأينعت عنباً ورمانياً وزيتوناً ونخلاً وغير ذلك، فإذا سألنا هؤلاء: من أين جاءت الشتلة الأولى؟ فسيجيبون بأنهم ورثوها عن أجدادهم!!! ولو سألناهم من أين لأجدادهم بهذه الشتلات فيقولون بأن أجداد أجدادهم هم الذين أوجدوا الشتلات؟ فهل كان بمقدور آدم عليه السلام أو من تبعه من أولاده وأحفاده وأحفاد أن يصنعوا شتلات الأشجار المثمرة الموجودة على سطح الأرض، والتي تقدّر بنصف مليون صنف؟!

وإن فعل الإنسان البدائيّ القديم ذلك، فلماذا لا يصنّعه الآن المتخصّصون في علوم النبات؟! وإذا صنع الإنسان القديم نصف مليون شتلة مختلفة الأصناف والألوان، فلماذا لا يصنّع الإنسان المتخصّص شتلة واحدة تنبت لنا صنفاً جديداً من الثمار والفاكهة أو من الحبّ أو القصب أو الزيتون أو النخل غير التي نعرفها؟! لماذا لا يصنّع أساتذة وعلماء النبات ما صنعه الإنسان البدائي الأوّل؟

هذا التحدي قائم وموجه بشكل خاص للمحليين والماديين من الآن وحتى قيام الساعة. فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا فليعدلوا عن نظرياتهم المهلهلة البالية، وليتساقوا قبل أن ينزل فيهم عقابه ويحلّ عليهم غضبه.

هذا ومن ناحية أخرى فإنّ التحدي الإلهي لهؤلاء الماديين قائم ومنذ الأزل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (الحج/ 73)، ومن آيات التحدي العظيمة الأخرى قوله جلّ جلاله: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الطَّاغُوتُ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (لقمان/ 11).

يتحدّى الإنسان سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين الكريمتين كافة علماء الدنيا كي يجتمعوا ويتعاونوا فيخلقوا أي كائن حيٍّ ولو كان حقيراً كالذباب، ويؤكدّ لهم في الوقت ذاته عجزهم وضعفهم الذي يعادل عنده ضعف الذبابة وعجزها وحقارة مكانتها وفلاّة حيلتها، كما يلفت سبحانه وتعالى نظر الإنسان وانتباهه إلى عجزه عن استرجاع شيء إن سلبه الذباب إيّاه، وهذا يدلّ على أنّ الإنسان ضعيف، وهو عند الإنسان أضعف من هذا الذباب المتناهي في الصغر والحقارة.

فالإنسان وإن غزا الفضاء وبلغ ذروة التقدّم العلمي فإنّه عاجز كل العجز عن خلق حيوان أو نبات أو أيّ شيء حيٍّ. فالخلق كان بمشيئة الإنسان وبقدرته، أمّا التناسل بجميع أشكاله: الحيواني والنباتي والبشري، فإنّه مستمر أو مقدّر له الاستمرار بالأسباب التي يسعى إليها ويقوم بها بني البشر من أجل الحفاظ على الأجناس.

فالإنسان لا يمكنه أن يخلق نفسه ولا أن يخلق غيره، ولكن حكمة الله شاءت أن يجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، وأمرهما بالتزاوج والتكاثر، وفضّل لهما على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وحتى الإنجاب فإنّه بقدرته الله تعالى ومشيئته؛ لأنّه بإمكانه أن يرزق من يشاء بنية، وأن يجعل من يشاء عقيماً حتى لو خضع لعلاج أعظم أطباء العصر المتخصّمين بالعقم والإنجاب (لِللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْ شَاءَ إِنَّ زَاوِجَهُمْ لَمَنْ يَشَاءُ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (الشورى/ 49-50). فالله وحده الذي خلق الحيوانات، المنيوية، وهو الذي خلق البيضة في الأنثى، ولكن الزوجين عملاً بالأسباب فتزوجا، فتخصّبت البيضة بنطفة مذكرة، فكان منها العلقة فالمضغة فالعظام، ثمّ كسا العظام لحماً ثمّ أنشأه خلقاً آخر، وهذا كلّهُ من الله وليس ليد الإنسان فضل فيه.

أمّا الاستنساخ الذي به العالم الإيرلندي إيان ولموت في آذار (مارس) 1997م على إحدى النعاج فأنتج نعجة مماثلة سماها (دوللي) فإنّه ليس إلا تلاعباً بالجينات الموجودة أصلاً في خلايا حية أخذها من

بيضة النعجة الأصلية ومن خلية ثدي من نعجة أخرى. أي أنَّهُ لم يصنَّع خلية بنفسه، بل أخذ خليتين حيتين من خلق الله وإبداعه. أمّا التعامل مع الجينات فإنَّه علمٌ ظهر إلى الوجود قبل عشرات السنين وأُطلق عليه اسم الهندسة الوراثية، وهو يهتم بتخليص الأجنة من الأمراض والتشوهات الخلقية.

فإنَّ وحده إذن الذي أعدَّ الأرض لبني البشر قبل نزولهم فيها من السماء وهو الذي قدَّر فيها أقواتهم وأرزاقهم من مواشٍ وحيوانات وأشجار مثمرة ونباتات من مختلف الأشكال والأنصاف: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (البقرة/ 29). وإذا شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يعاقب من جحدَّ فضله وربوبيته بأن يتلف زرعه وأرضه فلن يحول دون ذلك حائل، فقد يسلب الله عنها مائها أو حشرة حقيرة فتذهب بالأخضر واليابس، فتصبح جذَّته هشيماً تذروها الرياح، أو يجعلها عقيمة لا تنبت ولا تثمر: (وَأُحْيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ مِمَّا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) (الكهف/ 42)، وقال جلَّ جلاله: (أَفَرَأَيْتُمْ مِمَّا تَحَرُّثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَّاتُمْ تَفَكَّهُونَ) (الواقعة/ 63-65).

فالخلق كلُّه الخلق من الله وبيده وحده سبحانه وتعالى لا شريك له: (أَمْ مِّنْ خَلْقٍ سَمَّاوَاتٍ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مِّمَّا كَانِ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا) (النمل/ 60)، وقال عزَّ من قائل: (أَفَرَأَيْتُمْ أَنْزَلْنَاهُ تُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ) (الواقعة/ 72).

يخبرنا سبحانه وتعالى من خلال هذه الآيات ويؤكد أنَّه هو الذي أوجد المراعي والحدائق والحقول، وهو الذي خلق الكون والأرض، وقدَّر فيها أقواتها أخرج منها ماءها مرعاها قبل أن يخلق الإنسان بملايين السنين: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا) (الإنسان/ 1)، (وَبَارِكْ فِيهَا وَقَدَّرْ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيْلَيْنِ) (فصلت/ 10)، (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) (النازعات/ 30-31).

أمّا المعجزة الثانية في عالم النبات فهي امتصاص الأشجار ما تحتاجه من ماء وغذاء وسماد من التربة. هناك بعض الملحدين يقولون بأنَّ الماء والغذاء يصعدان من التربة عبر جذور النباتات إلى جذوعها فأوراقها فثمارها تلقائياً بفعل الخاصية الأسموزية (خاصية الأنابيب الشعرية). هذا حقٌّ، ولكن من الذي خلق هذه الجذور وجعل فيها أوعيتها الشعرية؟ ومن الذي مدَّ هذه الأوعية إلى الجذع والأغصان والأوراق والثمار لتمدّها بالماء والغذاء؟! إنَّه الله وحده لا شريك له سبحانه.

وقد واجهنا ذات مرة أحد الملحدين بسؤال أربكه: إنَّ في التربة مواد عضويةٌ ومعدنيةٌ كثيرةٌ إلى جانب الماء، وقلنا له بأنَّه قد ثَبِتَ علمياً بأن كل نوعٍ من الأشجار يمتص بعض هذه المواد المنحلَّة في التربة ولا يمتصُّ كافة هذه المواد، أي أنَّ كل نوع من الثمار يختار من عناصر الأرض ما يناسبه وما يلزمه لبناء ثمره ويترك الباقي، لذلك فإننا نرى لكلِّ ثمرة طعمًا ولونًا وحجمًا ورائحةً وشكلًا مغايرًا لباقي الثمار، فمنها الحلو ومنها الحامض ومنها المرُّ، ومنها الصغير ومنها الكبير، ومنها الأحمر ومنها الأصفر ومنها الأخضر، ومنها ذكيُّ الرائحة ومنها ما يفتقر إلى الرائحة... وهكذا. هذا كلُّه ينبت وينتج من أشجار مزروعة في أرض واحدة، وتُسقى من نفس الماء، وتغذَّى بنفس السماد، وتعرَّض لنفس الشمس، فما سرُّ هذا التفاوت العجيب بين هذه الثمار؟.

دُهِشَ الملحد وفغر فاه وحاول إعمال مخَّبه لإيجاد جواب يتناسب وأفكاره البالية، ولكن عقله خَذَلَه، وهذا أمر طبيعي لأنَّه بعيد كل البعد عن روح الإسلام، ولم يشعر في يوم من الأيام بوجود الله، ولم يتأمَّل في قدرته وعظيم خلقه: (مُنْعَ اللَّهِّ السَّذِيَّ أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ) (النمل / 88).

إنَّ الضلالة والجهل التي يتخبط في ظلامهما جعلاه لا يدرك ما يدور حوله من معجزات وآيات إلهية تنطق بعظمة الله وبوجوده سبحانه وتعالى، فلو كان لديه بعض الإدراك للاحظ بأنَّ المشمش الذي يأكله على أنواع عديدة تشترك فيما بينها بالشكل الخارجي وبلونها المميِّز، ولكن لكل صنف طعم يميِّزه عن باقي الأصناف، وكذلك الأمر بالنسبة للتفاح والعنب والرمان ورطب النخل وكافة ثمار الأرض!.

لقد وجَّهنا نفس السؤال لشاب مسلم أنار الله قلبه وبصيرته بنور الإسلام فقال بأن وراء ذلك سرٌّ وإعجاز إلهيين كان قد ذكرنا الله بهما في كتابه الحكيم من خلال العديد من الآيات والتي منها الآية: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد / 4)، والآية: (وَهُوَ السَّذِيَّ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ الذَّخْلَ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَيَّ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأنعام / 99).

نعم إنَّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون فيؤمنون، ولكن الإلحاد ذهب بعقول بعض الناس وبأحاسيسهم، وطمس على قلوبهم فغرقوا في ظلمات الكفر والفسوق والضلال: (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * وَقَالَ جَلَّ جلاله: (أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنْزَلْنَا خَلْقَناهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ) (يس / 77). نعم لقد خلقنا الله من ماء مهين لئلا نفخر ونتكبر، ثم صوَّرنَا فأحسن صورنا، وأسبغ علينا زعماءه

ظاهرة وباطنة، وأنعم علينا بالعقل والفؤاد والسمع والبصر، ونعماً كثيرة لا تُعدُّ ولا تحصى: (فُلْ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً وَجَعَلَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَالْأَنْهَارَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (الملك/ 23).

لقد سخَّر لنا الله سبحانه وتعالى الأرض بمراعيها وحيواناتها وثمارها وشجرها وخشبها وبحرها، وسخَّر لنا الشمس والقمر دائبين، وسخَّر لنا الرياح لواقح ولتدفع سفننا، وخلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها، وجعل بيننا مودة ورحمة، وخلق نعماً كثيرة لا يمكن حصرها... ثم نحن بعد ذلك نتكبر على الله ونتغطرس ونتجبر، ونكفر نعمه وربوبيته، وهو (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّاكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى) (طه/ 53-54).

فلو كانت هذه المزروعات والأشجار والمراعي وما يدبُّ عليها من مواشٍ من صنع الإنسان البدائيِّ القديم، فإنَّه لا بدَّ أنَّهُ قد احتاج لإنجاز هذا الإبداع أمداً طويلاً، أمداً كافياً للقضاء عليه من الجوع والعطش. فلو لم يُهيئ الله الأرض لسكن الناس عليها قبل نزول آدم من الجنة، لانقرض الجنس البشري منذ ذلك الحين.. ف سبحانه الله رب العزَّة عما يصفون.

المصدر: كتاب وجود الله بالدليل العلمي والعقلي